

لمحة تاريخية عن اهتمام العلماء باللغة العربية خدمةً للقرآن الكريم

ط د . علي رضوان درار، د. تاج بالطير

aredouane.derrar@univ-mascara.dz

tadj.bettir@univ-mascara.dz

تاريخ الإرسال: 2020 /07/01 ؛ تاريخ القبول: 2021 /05/18

A brief history of scholars 'interest in the Arabic language in the service of the Holy Quran

Abstract: Muslims cannot establish their religion, or understand their Qur'an without the help of the Arabic language, and without the Holy Qur'an, the Arabic sciences would not have advanced, and would have distinguished from other sciences of other languages. Also, some Arabic sciences without the Holy Qur'an would not have existed or existed.

People entered Islam, so they learned his tongue, and realized that he would not complete religion except by adjusting his language, so they began to serve and care for it, as they initiated to memorize the Qur'an and Sunnah, study interpretation and hadith, and understand the origins of religion and jurisprudence. Rather, they took from Arabic lessons a gateway to those sciences.

Some people try to isolate Muslims from their Qur'an and its language, and some find fault with Arab scholars for their

method which they built on the origin of the Qur'an, that high style, which elevates its owner to the language of the Qur'an, and the Holy Qur'an is the light of our minds, the life of our souls, as it is the sweetness of our tongues, and the completeness of our logic .

The virtue of the Noble Qur'an over Arabic is its survival and immortality, and this has elevated it to be a language that people are transcendent in its achievement, which motivates them to serve the Noble Qur'an.

Keywords: The Noble Qur'an; the Arabic language; the drawing of the Qur'an; the words of the Qur'an; Meanings of the Quran

الملخص:

لا يمكن للمسلمين أن يقيموا دينهم، أو يفهموا قرآنهم دون استعانة باللغة العربية، ولولا القرآن الكريم لما تقدّمت علوم العربية، وتميّزت عن غيرها من علوم اللغات الأخرى، كما أنّ بعض علوم العربية لولا القرآن الكريم ما كانت ولا وُجدت.

دخل الناس في الإسلام، فتعلّموا لسانه، وتيقنوا أنه لا يكمل منهم الدين إلا بضبط لغته، فبادروا إلى خدمتها والعناية بها كما بادروا إلى حفظ القرآن والسنة، ودراسة التفسير والحديث، وتفهم أصول الدين والفقه، بل اتّخذوا من درس اللغة العربية بوابةً إلى تلّكم العلوم.

ويحاول البعض، أن يعزلوا المسلمين عن قرآنهم ولغته، فتجد بعضهم يعيب على علماء العربية أسلوبهم الذي بنوه على أصل القرآن، ذاك

الأسلوب الراقي، الذي يسمو بصاحبه إلى لغة القرآن، والقرآن الكريم هو نور عقولنا، وحياة أرواحنا، كما هو حلاوة ألسنتنا، وكمال منطقنا. وفضل القرآن الكريم على العربية يتمثل في بقائها وخلودها، وهذا الذي رفعها إلى أن تكون لغة يتسامى الناس في تحصيلها، يدفعهم إلى هذا خدمة القرآن الكريم، فالقرآن الكريم هو الدافع الحقيقي الذي جعل من العربية مقصداً يبارى الجميع في بلوغه وتحقيقه.

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم؛ اللغة العربية؛ رسم المصحف؛ ألفاظ القرآن؛ معاني القرآن.

مقدمة:

لم يمرّ بالعربية حدث أعظم من الإسلام، ونزول القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم، فيه صارت العربية لغة مرغوبة، لا لعامل سياسي، ولا لسبق حضاري، بل لمكانتها في الدين؛ إذ تطلع أهل البلاد المفتوحة إلى دراسة هذه اللغة، والعناية بها، وذلك للقصد الأسمى، وهو تحقيق العبادة، وتلاوة القرآن، وفهم نصوص الوحيين، فكان من ثمرات ذلك نشأة علوم اللغة العربية من نحو وصرف، ولغة ومعجم، وأدب وبلاغة. وتأصل هذا الأمر في حس كل مسلم، عقيدةً وواجباً شرعياً، سواء في ذلك من لغته الأصلية: العربية، ومن لغته الأصلية غيرها، فاشترأت إلى درس العربية أعناقهم، وتناولت إليه هاماتهم، وجعلوا القرآن الكريم

أعلى نموذج للبيان العربي، فغاروا فيه يستخرجون وجوه بيانه، وأسرار إعجازه.

ولولا القرآن والإسلام، ما كان هناك عربيّة كما نشهدها، ولبقيت هذه اللغة لغةً فئدة محصورة، يزهد فيها العالم، ويرغب عنها في غيرها، بيد أنّ الإسلام نقل العربيّة إلى العالمية، فكانت لها الصدارة، يتعلمها ويهتم بها العربي وغيره، ويتمنى أن يتقنها كل مسلم، تحلّ في سويداء قلبه أعلى مكان، وهي أحب إليه من كل لسان، ولو كان لسان أبيه وأمه.

دخل الناس في الإسلام، فتعلّموا لسانه، وتيقنوا أنه لا يكمل منهم الدين إلا بضبط لغته، فبادروا إلى خدمتها والعناية بها كما بادروا إلى حفظ القرآن والسنة، ودراسة التفسير والحديث، وتفهم أصول الدين والفقه، بل اتخذوا من درس اللغة العربية بوابةً إلى تلّكم العلوم.

تفرّغ فئام من المسلمين من غير العرب لخدمة اللسان العربي، على اختلاف مستوياته؛ الصوتي، والصرفي، والتركيب، والدلالي، ولم يقتصر الأمر على ما ورد به الاستعمال في القرآن والسنة، بل تعدّاه إلى جمع اللغة، وحصر شاردتها ونادرها، غريبها وشاذّها، في اعتناء لم يتحقّق للغة من اللغات الأخرى، واهتمام لم يحظ به لسان من الألسنة المتعددة، فشهد التراث من مصنفات اللغة العربية الشيء العجّاب، ألفه قومٌ ليست العربية لغتهم الأصلية، ولكنهم صاروا من أهلها حبّاً وولاء.

أقبل المسلمون جميعا على كتاب ربهم عز وجل، فأكبوا عليه حفظا ودرسا وفهما لمعانيه، والتزاما لأحكامه، وتميزا لألفاظه ومبانيه، وتعرفا على طرائق رسمه، وإسناد قراءاته، فكانت اليد الطولى في خدمة القرآن الكريم لعلماء العربية، في فنون شتى؛ الرسم، والضبط، والمعاني، والقراءات، والألفاظ، والبناء، والبلاغة، والإعجاز، وغيرها من الفنون التي لولا القرآن الكريم لما كانت، كما قال أبو حاتم: "أقبلت الأمم كلها إلى العربية يتعلمونها رغبة فيها، وحرصا عليها، ومحبة لها، وفضلا أبانه الله فيها للناس، ليبين لهم فضل محمد صلى الله عليه وسلم على سائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، وثبت نبوته عندهم، وتؤكد الحجة عليهم، وليظهر دين الإسلام على كل دين، تصديقا لقوله عز وجل: { هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون } . التوبة: 33" . (الرازي، 1994: 75)

تتابع أجيالاً فأجيالاً على خدمة اللغة العربية، بتدوين علومها، وتبويب مسائلها، بالجمع، والتأليف، والتفقيذ، والبحث عن جمالياتها، وبيان إعجازها في القرآن الكريم، ليس من أبنائها ذوي الأعراق العربية، بل من أبنائها ذوي الأصول الأعجمية، ومن أمثلة هؤلاء من علماء اللغة العربية: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ت255هـ، أبو حاتم الرازي ت322هـ، أبو علي الفارسي ت377هـ، أحمد بن فارس ت395هـ، وأبو حيّان التوحيدي ت414هـ، كانوا جميعا من أعراق غير

عربية، ولم تمنعهم أعراقهم عن الإشادة باللغة العربية، وتمجيدها، وتعظيمها، وتفضيلها وتقديسها، لا دافع لهم إلا أنهم مسلمون، قرؤوا القرآن، فوقفوا على أوجه بيانه، وأسرار نظمته، ودلائل إعجازه، وأيقنوا أن لغة اختيرت لهذا الكتاب لم يكن اختيارها عبثا، لأن رب العالمين عليم خبير حكيم.

وقد اعتبر طائفة من العلماء كون القرآن باللغة العربية دليل فضلها، فقال أبو حاتم الرازي: "أفضل السنة الأُمّ كلّها أربعة: العربية، والعبرانية، والسريانية، والفارسية، لأن الله عز وجل أنزل كتبه على أنبيائه عليهم السلام آدم، ونوح، وإبراهيم، ومن بعدهم من أنبياء بني إسرائيل بالسريانية والعبرانية، وأنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم بالعربية، وذكر أنّ المجوس كان لهم نبيّ وكتاب، وأن كتابه بالفارسية، هذا ما اتفق عليه أهل الشرائع". (الرازي، 1994: 73)

بل اعتبر الرازي العربية هي الأفضل من بين هذه اللغات، وجعل مما يدلّ على ذلك حرص الناس على تعلّمها، ونقل كتب أهل الكتاب من غير العربية إلى العربية، ونقل كتب حكماء العجم إليها، ونقل ما في كتب الفلسفة، والطب، والنجوم، والهندسة، والحساب، من اليونانية والهندية إلى اللغة العربية، كما جعل من الأدلّة على هذا عدم قدرة أحد من سائر الأمم نقل القرآن وترجمته إلى شيء من ألسنتها، وذلك لكمال العربية ونقصان غيرها من اللغات". (الرازي، 1994: 73)

وأضاف ابن فارس مظهرا من مظاهر تفضيل اللغة العربية على سائر اللغات، من خلال تقرير أنّ العربية توقيف من عند ربّ العالمين، وجعل كونها توقيفية ميزة انفردت بها عن لغات العالم، وعليه فتكون وحيّا حفظ حتى نزل بها القرآن، فانضمّ الوحي إلى الوحي، فهي لغة مصونة مرعية برعاية الله من التغيير والابتدال، فرقت في مراقبي المجد والسمو. انظر: (ابن فارس، 1977: 6-10)

وقد بلغت العربية غاية كمالها بعد مجيء الإسلام، ونزول القرآن، فجذّت في العربية ألفاظ ومعان، وزالت ألفاظ ومعان، وثقلت ألفاظ عن معانيها إلى معانٍ أخرى، كراهة لأصل معناها، أو تأدبا، أو اقتفاء لأمر الشرع. انظر: (ابن فارس، 1977: 101-111)

والقرآن الكريم هو الذي أخرج فصحاء الأدب العربي، وأكثرهم شهرة بالبلاغة العربية، كابن المقفع، ولولا القرآن والحديث، وكتب السلف وآدابهم، لم يخرج أمثاله. انظر: (الرافعي، 1983: 22-25)

ويحاول البعض، ممن لا ينتسب إلى الإسلام تارةً، وممن ينتسب إليه تارةً، بدافع ووعي من أولئك، وبجهل ولا وعي من هؤلاء، أن يعزلوا المسلمين عن قرآنهم ولغتهم، فتجد بعضهم يعيب على علماء العربية أسلوبهم الذي بنوه على أصل القرآن، ذاك الأسلوب الراقي، الذي يسمو بصاحبه إلى لغة القرآن، وأسلوبه، ومنطق رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنطق أصحابه، وفصحاء العرب، ويقترح عليهم ترك

الجملة القرآنية، والقرآن الكريم هو نور عقولنا، وحياة أرواحنا، كما هو
حلاوة ألسنتنا، وكمال منطقنا.

يختالوننا ليصرفونا عن لغة القرآن وبيانه، كما فعلوا ليصرفونا عن
العمل به وتلاوته، فصار التجديد في اللغة والبيان عند أولئك وهؤلاء
هو التخلي عن لغة القرآن وبيانه، والانسياق خلف الرطانة الأعجمية،
واللكنة المعوجة، يدعون إلى تسويد الصفحات بأحرف عربية، ولغة غير
عربية، وكل حرب يديرها الأعداء وعملاؤهم على فصاحة القرآن
وبلاغته، وبيانه العالي، لا يُقصد إلا حرب على أصولها؛ القرآن،
والحديث، وكلام السلف. انظر: (الرافعي، 1983: 26-33)

ثم إننا إذا نظرنا من جهة ثانية، رأينا أن الحاجة إلى علوم العربية في
علوم الدين، هي التي كانت الدافع الأول لحفظ لغة العرب، وأشعارهم،
وكلامهم، وأمثالهم، وأنسابهم، وسائر علومهم، قال أبو حاتم: "لولا ما
بالناس من الحاجة إلى معرفة لغة العرب، والاستعانة بالشعر على العلم
بغريب القرآن، وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، والصحابة،
والتابعين، والأئمة الماضين، لبطل الشعر، وانقرض ذكر الشعراء، ولغى
الدهر على آثارهم، ونسي الناس آياتهم، ولكن الحاجة بالمسلمين ماسة
إلى تعلّم اللغة العربية، ومعاني الألفاظ الغريبة في القرآن والحديث،
والأحكام والسنن، إذ كان الإسلام قد ظهر بحمد الله في جميع أقطار
الأرض، وأكثر أهل الإسلام من الأمم هم عجم، وقد دعتهم الضرورة

إلى تعلّم لغة العرب، إذ كانت الأحكام والسّنن مبيّنة بلسان العرب".
(الرازي، 1994: 123)

وهذه الحاجة لم تتأصل زمن النبوة وصدر الإسلام، لكون أهل ذلك
العصر أهل سليقة عربية مستقيمة، فالكلام عندهم مدرك مفهوم، وسنن
العرب في كلامهم ظاهرة معلومة، قال أبو عبيدة: "لم يحتج السلف، ولا
الذين أدركوا وخيّه إلى أن يسألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن معانيه،
لأنهم كانوا عرب الألسن، فاستغنوا بعلمهم عن معانيه، وعمّا فيه مما في
كلام العرب مثله من الوجوه والتخليص، قال الزهري: "إنما أخطأ
الناس في كثير من تأويل القرآن لجهلهم بلغة العرب". (الرازي،
1994: 123)

فلما قامت الحاجة بسبب بعد الزمن، وفُشو الخطأ، قام علماء العربية
بواجبهم نحو الدين والقرآن، فجمعوا ما الحاجة داعية إلى جمعه، وألفوا
فيما علوم الشريعة مفتقرة إليه، قال أبو حاتم: "رأينا العلماء باللغة
العربية قد كفوا الناس مؤونة هذا الشأن، وأحكموه إحكاماً بيناً، لما
دوّنوه من أشعار الشعراء، وألفوه من المصنّفات، ووصفوه من الصّفات
في كلّ ما قدروا عليه، مما يحتاج الناس إلى استدراكه، حتّى لعلمهم لم
تفتهم كلمة غريبة، ولا حرف نادر إلّا وقد ربطوه بأوثق رباط، وعقلوه
بأحكم عقال، ورسموا في ذلك رسوما، وعوّلوا في ذلك كلّه على
الشعر، والاحتجاج به، وهذا للغة العرب خصوصاً ليس لسائر لغات

الأُمم، وذلك كُلُّه لشِدَّة حاجة النَّاس إلى معرفة لغة العرب، ليصلوا به إلى ما ذكرنا من معاني القرآن والألفاظ الغربية فيه، وفي أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين، والأئمة الماضين، وما يجيء في الشريعة من الأسامي في أصول الفرائض والسنن، ممَّا الجهل به نقص ظاهر على المرء المسلم، وشينٌ فاضح على كلِّ ذي دين ومروءة". (الرازي، 1994: 134)

هذا حال العلماء من المسلمين، أما عامة المسلمين، وطلاب القرآن وعلم الشريعة خاصة، فقد اقبلوا على العربية يتلقَّونها، يتعلَّمون طرائق الكلام، والألفاظ والمعاني، والبلاغة والبيان، وغايتهم من وراء ذلك التفقُّه في الدين، وفهم كلام الله تعالى الذي لا يتمُّ إلا بمعرفة اللغة العربية.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: "أعربوا القرآن فإنه عربيّ". (الرازي، 1994: 124)

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "تعلَّموا إعراب القرآن كما تتعلمون حفظه"، وفي أثر آخر: "تعلَّموا اللحن والفرائض والسنة كما تتعلَّمون القرآن". (الرازي، 1994: 124)

وقال يحيى بن عتيق: "سألت الحسنَ فقلتُ: الرجل يتعلَّم العربية يلتمس بها المنطق، ويقيم بها قراءته؟ فقال الحسنُ: فتعلَّمها، فإنَّ الرجل يقرأ الآية، فيعيا بوجهها، فيهلك فيها". (الرازي، 1994: 124)

ودافع آخر يجعل الناس يطلبون تعلّم اللغة العربية، هو حجيتها، وكونها دليلا شرعيا فيما يُرجع فيه عند الخلاف إلى اللغة، في اسم أو صفة أو شيء مما تستعمله العرب في كلامها من حقيقة ومجاز وما أشبه ذلك.

قال ابن فارس: "العلم بلغة العرب واجب على كلّ متعلّق من العلم بالقرآن والسنة والفتيا بسبب، حتّى لا غناء بأحد منهم عنه، وذلك أنّ القرآن نازل بلغة العرب، ورسول الله صلى الله عليه وسلم عربيّ، فمن أراد معرفة ما في كتاب الله عز وجل، وما في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم من كلّ كليم غريب أو نظم عجيب، لم يجد من العلم باللغة بدّا". (ابن فارس، 1977: 49)

وهذا يفسر عناية ابن فارس وغيره بعلوم العربيّة، ذلك لأنهم ربطوها بأصل من الأصول، وهو أنّ اللغة لا يتم فهم القرآن وتنزيل الأحكام إلّا بها، وما لا يتم الواجب إلّا به فهو واجب، وزاد بياناً لمقصوده بشيء من التحديد، فقال: ﴿لسنا نقول: إنّ الذي يلزمه من ذلك الإحاطة بكلّ ما قالته العرب، لأنّ ذلك غير مقدور عليه، ولا يكون إلّا لنيّ، كما قلناه أوّلا، بل الواجب علم أصول اللغة والسّنن التي بأكثرها نزل القرآن، وجاءت السنة، فأما أن يكلف القارئ أو الفقيه أو المحدث معرفة أوصاف الإبل، وأسماء السباع، ونعوت الأسلحة، وما قالته العرب في الفلوات

والنفاي، وما جاء عنهم من شواذ الأبنية، وغرائب التصريف، فلا*.
(ابن فارس، 1977: 49)

ثم نجد ابن فارس يعيب الذين يطلبون علوم الشريعة، وهم مع هذا يقصرون في علم العربية، واصفا بعض أهل زمانه من المتساهلين في اللحن، مقارنة إياهم بمن سبق قائلا: "وقد كان الناس قديما يجتنبون اللحن فيما يكتبونه أو يقرؤونه اجتنابهم بعض الذنوب، فأما الآن فقد تجاوزوا حتى إنّ المحدث يحدث فيلحن، والفقيه يؤلف فيلحن، فإذا نبها قالوا: ما ندري ما الإعراب! وإنما نحن محدثون وفقهاء، فهما يُسرّان بما يُساء به اللبيب". (ابن فارس، 1977: 56)

تعظيم علوم العربية بسبب اتصالها بالقرآن الكريم وعلوم الشرع بين مشتهر، تقف عليه في كتب كثيرة، مع اختلاف مشرب مؤلفيها وتباين منزعهم، على اختلاف الفنون التي هي اختصاصهم، من تفسير، وحديث، وفقه، وأصول، وأدب، ونحو، وبلاغة، كلّهم يجمعون على إعلاء شأن اللغة العربية، وأنها ضرورية لطالب القرآن وعلومه، ومن ذلك مقولة ياقوت الحموي، في مقدمة كتابه (معجم الأدباء): *هذه أخبار قومٍ عنهم أخذ القرآن المجيد، والحديث المفيد، وبصنائعهم ثمال الإمارة، وببضاعتهم يستقيم أمر السلطان والوزارة، ويعلمهم يتم الإسلام، وباستنباطهم يُعرف الحلال والحرام، ألا ترى أنّ القارئ إذا قرأ: {... أنّ الله بريء من المشركين ورسوله...} بالرفع فقد سلك طريقا

من الصواب واضحا، وركب منهجا من الفضل لائحا، فإن كسر اللّام
من {رسوله} كان كفرا بجثا، وجهلا قحّا". (الحموي: 1/ 53)

فلا يتحقق فهم صحيح للقرآن، والحديث، والفقه، وسائر علوم الشرع
إلا بتحقق فهم صحيح للغة؛ الأوضاع والاستعمالات، التراكيب
والأبنية، المعاني والأساليب، فسييل التفسير أن يرجع في فهم ألفاظه إلى
أهل اللغة، قال القاسمي: "لا بدّ في فهم الشريعة من اتباع معهود
الأميين، وهم العرب الذين نزل القرآن بلسانهم، فإن كان للعرب في
لسانهم عُرف مستمر، فلا يصحّ العدول عنه في فهم الشريعة، وإن لم
يكن لهم ثمّ عُرف، فلا يصحّ أن يجري في فهمها ما لا تعرفه، وهذا جار
في المعاني، والألفاظ، والأساليب، ولا يستقيم للمتكلم في كتاب الله أو
سنّة رسول الله أن يتكلّف فيهما فوق ما يسعه لسان العرب، وليكن
شأنه الاعتناء بما شأنه أن تعني العرب به، والوقوف عندما حدث".
(القاسمي، 1957: 1/ 94)

ومن المعروف عند علماء الشريعة أنّ الأخذ بمطلق اللغة واجب، وكذا
وجوب علم اللغة على من كلّف نفسه تفسير القرآن، ومن ذلك جعلهم
من شروط الاجتهاد في علوم الدين العلم باللغة، قال القاسمي في الأخذ
بمطلق اللغة: "إنّ القرآن نزل بلسان عربي مبين، وهذا قد ذكره جماعة،
ونصّ عليه أحمد في مواضع، لكن نقل الفضل بن زياد عنه أنه سئل عن
القرآن يمثّل له الرجل بيت من الشعر؟ فقال: ما يعجبني... وهو محمول

على من صرف الآية عن ظاهرها إلى معانٍ خارجة محتملة يدلّ عليها القليل من كلام العرب، ولا يوجد غالبا إلا في الشعر نحوه، ويكون المتبادر خلافها، وروى البيهقي في (الشُعَب) عن مالك قال: لا أوتى برجل غير عالم بلغة العرب يفسّر كتاب الله، إلّا جعلته نكالا". (القاسمي، 1957: 8/1)

وقال ابن خلدون: "اعلم أنّ القرآن نزل بلغة العرب، وعلى أساليب بلاغتهم، فكانوا كلّهم يفهمونه، ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه، وكان ينزل جملا جملا، وآيات آيات، لبيان التوحيد والفروض الدينية بحسب الوقائع، ومنها ما هو في العقائد الإيمانية، ومنها ما هو في أحكام الجوارح، ومنها ما يتقدّم، ومنها ما يتأخّر ويكون ناسخا له، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يبيّن المجلّم، ويميّز الناسخ من المنسوخ، ويعرّفه أصحابه، فعرفوه وعرفوا سبب نزول الآيات، ومقتضى الحال منها منقولاً عنه، كما علّم من قوله تعالى: {إذا جاء نصر الله والفتح} أنها نعي النبي صلى الله عليه وسلم وأمثال ذلك، ونقل ذلك عن الصحابة رضي الله عنهم، وتداول ذلك التابعون من بعدهم، ونقل ذلك عنهم، ولم يزل متناقلا بين الصدر الأول والسلف حتى صارت المعارف علومًا، ودوّنت الكتب، فكتب الكثير من ذلك، ونقلت الآثار الواردة فيه عن الصحابة والتابعين، وانتهى ذلك إلى الطبريّ والواقديّ والثعالبيّ، وأمثال ذلك من المفسّرين، فكتبوا فيه ما شاء الله أن يكتبوه من الآثار، ثم

صارت علوم اللسان صناعيّة، من الكلام في موضوعات اللغة، وأحكام الإعراب، والبلاغة في التراكيب، فوُضِعت الدواوين في ذلك بعد أن كانت ملكات للعرب، لا يُرجع فيها إلى نقلٍ ولا كتابٍ، فتنوسي ذلك، وصارت تُتلقَى من كتب أهل اللسان، فاحتيج إلى ذلك في تفسير القرآن، لأنه بلسان العرب، وعلى منهاج بلاغتهم". (ابن خلدون، 1996: 407)

وفي آخر محطّات النظر في هذا المقال، نرى أنّ العلاقة بين علوم العربية وعلوم القرآن كانت منذ نشأة علوم العربية، والتي كان القرآن هو السبب في ظهورها، وتدوينها، واشتغال الناس بها، بل جعلها أساس العلوم، فإنّ زيادا لما ولي العراق لمعاوية رضي الله عنه بعث إلى أبي الأسود الدؤلي وقال له: اعمل شيئا تكون فيه إماما، تُعربُ به كتاب الله تعالى، ويتنفع الناس به، فاستعفاه من ذلك، حتّى سمع رجلا يقرأ (أنّ الله بريء من المشركين ورسوله) بكسر اللّام، فقال: ما ظننت أمر الناس صار إلى هذا ولا أظنّ يسعني إلّا أن أضع شيئا أصلح به نحو هذا، أو كلام هذا معناه، فوضع النحو". (اللغوي: 26)

لقد كان السابقون من علماء العربية يجمعون إلى علم العربية علما أو أكثر من علوم القرآن، كالقراءات، أو التفسير، أو غيرهما، كمثّل: يحيى بن يعمر، وأبي عمرو بن العلاء، وعاصم بن أبي النّجود، وابن محيصن، والكسائيّ، وأبي حاتم. انظر: (اللغوي: 35، 49، 121، 130)

وبنظرة عابرة في كتاب (معرفة القراء الكبار) للذهبي، نقف على عدد كثير من هؤلاء، ك: حمزة الزيات، وأبي المنذر المزني، ويحيى بن المبارك اليزيدي، وورش، وقالون، ويعقوب الحصري، والعبّاس بن الفضل، والقاسم بن سلّام، وأحمد بن صالح، ومحمد بن سعدان، ومحمد بن القاسم الأنباري، وأحمد بن يعقوب التائب، ومحمد بن النضر، وأبي بكر محمد بن مقسم، وغيرهم كثير. انظر: (الذهبي)

ولو نظرنا في تراجم هؤلاء القراء، وتأملنا أحوالهم، لوجدنا أنّ المقدّم منهم في القراءة متقدّم في علم العربية، والمتوسط في القراءة متوسط في علم العربية، وكذا لوجدنا الضعيف ضعيفا، وكان القراء سابقا يذّلون ما يمكنهم في سبيل إتقان علوم العربية، قال خلف بن هشام: "أشكل عليّ بابّ من النحو، فأنفقت ثمانية آلاف درهم، حتّى حدّثته". (الذهبي: 172)

وهذا ما يؤكّد الصلة الوثيقة بين علوم القرآن وعلوم العربية، بحيث أنه لا ينفك أحدهما عن الآخر، كأنهما توأمان، فلا مغالاة إذن في قول: إنّ علوم العربية على اختلاف أنواعها، لم توجد إلا لخدمة القرآن وعلومه، والمسلمون لم يهتموا هذا الاهتمام البالغ باللغة العربية، إلّا لأنها تخدم القرآن وعلومه، من قراءة، ورسم، وإعراب، وبلاغة، وإعجاز، ومعنى، وتفسير...

كانت لعلماء العربية جهود بارزة في خدمة القرآن الكريم، في ميادين شتى، نكتفي في هذا المقال بذكر ما كان الدافع القرآني فيه جلياً واضحاً، وذلك ثلاثة أصناف - على سبيل التمثيل لا الحصر -:

علم الرسم: الخط العربي له أكثر من رسم، وهذا أمر مسلم معروف، غير أن الذي يهمنا هنا هو رسم المصحف والرسم المعتاد، فنجد أن رسم المصحف اختصّ بأمورٍ خرجَ بها عن أصول الرسم المعتاد وبعض قواعده، وطريقة كتابة بعض الكلمات.

نجد من أوائل النصوص في هذا الموضوع قول أبي الأسود الدؤلي لكتابه: "إذا رأيتني فتحتُ فمي بالحرف، فانقط نقطةً فوقه على أعلاه، فإن ضممتُ فمي فانقط نقطةً بين يدي الحرف، وإن كسرتُ فاجعل النُّقطة تحت الحرف، فإن أتبعْتُ شيئاً من ذلك غنةً فاجعل مكان النقطة نقطتين". (السيرافي، 1985: 35)

وهذا النقط يختلف عن نقط نصر بن عاصم، فمرجع هذا الأخير إلى ضبط حرف الإعراب بالحركات الثلاث، مع بيان ما فيه من الغنة حال التنوين، والأخر مرجعه إلى التمييز بين المعجم من الحروف والمهمّل، كنقط الجيم والخاء، وإهمال الحاء، وهذان يختلفان عن شكل الخليل الذي هو شامل لجميع أحرف الكلمة في جميع أحوالها؛ متحركة كانت أم ساكنة، مشددة أم مخففة. انظر: (البدوي، 1983). وانظر: (الداني، 1983: 124-126)

غير ممكن في درس الرسم (الإملاء) في العربية الفصل بين رسم المصحف، والرسم المعتاد، ففي كتاب (أدب الكاتب) لابن قتيبة، نجد الربط بين الرسمين واضحا جليا، من خلال أمثله، واختياراته، والقواعد التي رجع إليها، مما ينبه إلى أن الرسم القرآني هو الأصل، فإنه يعدّ نوافقة الرسم حجة ودليلا للترجيح، قال: "تكتب الصلوة، والزكوة، والحياة، بالواو اتباعا للمصحف، ولا تكتب شيئا آخر من نظائرها إلا بالألف مثل: قطاة، وقناة، وملاة". (ابن قتيبة، 1382: 201)

مع كونه قد يرجع الرسم المعتاد على رسم المصحف في بعض الحالات، ويستحسنه، وهذا لا يُخلُّ بقاعدته في أنّ رسم المصحف هو الأصل، فنجد مثلا يقول: "هذا الذي عليه المصحف، ومتقدّمو الكتاب، وقد كتب بعض الكتاب بياء قبل الواو (مستهزئون)، و(مقرئون)، وذلك حسن". (ابن قتيبة، 1382: 211). ويقول: "كُتبت (الموودة) في المصحف بواو واحدة، ولا أستحبُّ للكاتب أن يكتبها إلا بواوين". (ابن قتيبة، 1382: 211). ويقول أيضا: "وكتب بعضهم مثل (بئس) بياء واحدة اتباعا للمصحف، وكتبه بعضهم بياءين، وهو أحبُّ إليّ". (ابن قتيبة، 1382: 212)

والفرق بين الرسمين، أنّ رسم المصحف تابع لمرسوم المصحف الأول، أمّا الرسم المعتاد فهو بحسب اجتهاد الكتاب وعلماء العربية

واختياراتهم، وإن كان أصل الرسم في العربية هو رسم المصاحف،
والرسم المعتاد فرع عنه، وخلافه له راجع إليه، غير خارج عنه.
فعلماء العربية كان لهم الشرف في رفع الإيهام عن الخطّ العربيّ
بإعجابه، ونقطه، وشكله، والدافع إليه خدمة القرآن الكريم، وهي لا
شك خدمة جليلة جدًا.

ألفاظ القرآن الكريم: من أبرز مظاهر صلة علوم العربية بعلوم القرآن
الكريم التأليف في غريب القرآن، ف"في القرآن ألفاظ تسمى الغريب
والغرائب، لا من جهة نكارة في لفظها، أو شذوذ بنيتها، أو استكراه
لمعناها، لأنّ القرآن نزل بأحلى لغة العرب لطفًا، وأجملها صوتًا، وأوفرها
تركيبًا، وبأوضحها دلالة في المعنى، وإنما يُراد بوصف الغرابة أن تكون
حسنّة مستغرّبة في التاويل، بحيث لا يتساوى في العلم أهلها وسائر
الناس". (الرافعي، تاريخ آداب العرب، 1974: 71/2)

ومن المقرّر أنّ نشأة التأليف في معجم العربية كان يظهر التأليف في
غريب القرآن، وألفاظه، وكلماته، خاض فيه اللغويون بعد ذلك،
فاستقوا منه، وبنوا على أساسه، ووسعوا نطاقه، فكانت المعاجم اللغوية.
جاء في كتاب (المعجم العربي): "تفسير غريب القرآن ومشكله أولى
الحركات العلمية التي رآها العرب، ورأى بعض من فسّر الغريب أنّ
كثيرا منه غريب عن الأفهام، لأنّه ليس من لغة قريش، وإنما جاء في
القرآن من لغات القبائل الأخرى، فأشار إلى ذلك، وسمع بعضهم الآخر

من اختلط بهم من أهل الكتاب، ومن أهل البلاد القريبة من الحجاز، ومن أهل الأقطار المتاخمة لبلاد العرب، والتي دخلت تحت سيطرة الإسلام، أنّ بعض هذه الألفاظ موجود في لغاتٍ أخرى، فأشاروا إلى ذلك فكأنما جمعت هذه المحاولات الأولى بين تفسير الغربي، والمشكل، والإشارة إلى أصله في اللغات القبلية والأجنبية، وكانت هذه المحاولات العين التي استقى منها اللغويون بعد، وسبحوا فيما خرج منها من جداول أصبحت أنهاراً". (نصار، 1968: 32)

إذا نظرنا نظرةً عابرةً في تاريخ التأليف في غريب القرآن الكريم، نجدها تمتدّ من مادة تُعزى إلى ابن عباس رضي الله عنهم، ثم كتاب أبان بن تغلب، وكتاب محمد بن السائب الكلبي، وكتاب عبد الرحمان بن محمد الأزدي الكوفي، وهؤلاء من أهل القرن الثاني الهجري، ثم ألف من بعدهم أبو فيد مؤرّج بن عمرو السدوسي، وأبو سعيد البكري، وأبو محمد ينجى بن المبارك اليزيدي، والنضر بن شميل، وأبو عبيدة معمر بن المثنى، وأبو الحسن الأخفش، وأبو عبيد القاسم بن سلام، ومحمد بن سلام الجمحي، وأبو عبد الرحمان عبد الله بن محمد العدوي، وابن قتيبة وأحمد بن يحيى ثعلب، ومحمد بن الحسن بن دينار الأحول، وأبو جعفر بن محمد بن يزداد الطبري، وقد وصل إلينا منها كتاب (غريب القرآن) لابن قتيبة. انظر: (نصار، 1968: 40)

ثم جاء من بعدهم، ممن وصلت إلينا كتبهم: محمد بن عزيز السجستاني، وأبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، مروا بمحمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي الذي ألف كتاب (تفسير غريب ألفاظ القرآن العظيم) منتزعا من مصادر لغوية، وكتب التفسير، ككتب: الزجاج، والفراء، والأزهري، والجوهري، والزنجشري، وابن عزيز، وأبي عبيد الهروي. انظر: (الرازي م.، 1996: ن). ولم ينقطع التأليف في لغة القرآن وألفاظه، وغريبه، إلى عصرنا الحاضر.

ونجد مادة هذه الكتب قد دخلت في صميم المعجم العربي، لم يخرج منها إلا ما لم يكن من قبيل التفسير والشرح للفظ من الألفاظ، وهي تعتبر أساس المعجم العربي.

قال الراغب: "ألفاظ القرآن هي لبُّ كلام العرب وزبدته، وواسطته، وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمها، وإليها مفزع حدّاق الشعراء والبلغاء، في نظمهم ونثرهم، وما عداها وعدا الألفاظ المتفرّعات عنها، والمشتقات منها بالإضافة إليها كالقشور والنوى بالإضافة إلى أطايب الثمرة، وكالحثالة والتبن بالإضافة إلى لبّوب الحنطة". (الراغب، 1972: ن)

قال أبو إبراهيم الفارابي في معجمه (ديوان الأدب): "وقد أنشأت بتوفيق الله تعالى كتابا عملت فيه عمل من طبّ لمن حبّ، مشتملا على تأليف لم أسبق إليه، وسابقا بتصنيف لم أراحم عليه، وأودعته ما استعمل

من هذه اللغة، وذكره التحارير من علماء أهل الأدب في كتبهم، مما وافق الأمثلة التي مُثِّلَتْ، والأبنية التي أوردت، مما جرى في قرآن، أو أتى في سنة، أو حديث، أو شعر، أو رجز، أو حكمة، أو سجع، أو مثل، أو نادرة.

أما القرآن فوحيٌّ أوحاه الله تعالى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم مع روح القدس بلسان عربي مبين، وهو كلام الله، وقول الله، وتنزيل الله، مفصلاً فيه مصالح العباد، في معادهم ومعاشهم، مما يأتون ويذرون، ولا سبيل إلى علمه وإدراك معانيه إلا بالتبحر في علم هذه اللغة...". (الفارابي، 1976: 73/1).

فظهر بهذا أنّ الدافع لهؤلاء الأعلام، والغاية من وراء تأليفهم في اللغة والمعاجم هو خدمة القرآن الكريم، وإيضاح آياته، وبيان أحكامه.

معاني القرآن الكريم: لقد كان لعلماء العربية إسهامات واضحة في باب معاني القرآن الكريم، صارت بعد ذلك مصدراً من مصادر التفسير، وبرجوعنا إلى الكتب المؤلفة في المعاني، نقف على جهود بارزة لأهل العربية الأوائل، يتقدمها ثلاثة كتب نكتفي بالإشارة إليها، هي: (مجاز القرآن) لأبي عبيدة معمر بن المثنى ت210هـ، و(مجاز القرآن) لأبي الحسن الأخفش ت215هـ، و(معاني القرآن) للفرّاء ت207هـ، يتفق مؤلفوها على أنّ الغرض من وضعهم لها هو خدمة القرآن الكريم ودفع الشبه التي يرمي بها الملاحدة والزنادقة عنه، في زعمهم لصوق الخلل

والاضطراب والتناقض في القرآن العظيم، وقد جعلوا أصل ردّهم لتلك الشبه: لغة العرب، وأساليبهم البيانية وطرائقهم الكلامية، وكون القرآن لم يخرج عن طرائق العرب ورسومهم، وعن معهودهم وسننهم في الخطاب.

ولا تكاد تجد مفسرا للقرآن إلا وقد اعتمد هذه الكتب الثلاثة، وجعلها أصلا ومصدرا لتفسيره، بدءا بإمام المفسرين، الطبري محمد بن جرير، في كلامه في المعاني، وتفسير الألفاظ، والحديث عن سنن العرب في كلامها.

وباب المعاني، ولج منه المطاعون على كتاب الله تعالى، الزائغون عن نور اليقين، المحرومون من نور هدايته، وحلاوة بيانه، في محاولة التشكيك بزعم الخلل والتناقض والاضطراب، عن طريق ضرب القرآن بعضه ببعض، واتباع متشابهه، وترك محكمه، وترك الرجوع إلى ما يوافق كتاب الله تعالى من كلام العرب، وبيانهم، وأساليبهم، من حذف واختصار، وزيادة وتكرار، وكناية وتعريض، واستعمال الأضداد، والقلب، والمجاز، قال ابن قتيبة: "إنما يعرف فضل القرآن من كثرة نظره، واتباع علمه، وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب، وما خصّ الله به لغتها دون جميع اللغات، فإنه ليس في جميع الأمم أمة أوتيت من العارضة والبيان، واتّسع المجال، ما أوتيته العرب خصيصاً من الله، لما أرهصه في الرسول، وأراد من إقامة الدليل على نبوته بالكتاب، فجعله علمه، كما جعل كلّ

نبى من المرسلين من أشبه الأمور بما في زمانه المبعوث فيه". (ابن قتيبة،
تأويل مشكل القرآن، 1973: 12)

وهذه الشبه التي ذكرها هؤلاء، كلّها ترجع إلى باب واحد، وهو باب
اللغة والبيان، وقد بنى علماء المعاني دفعهم لهذه الشبه على تقرير أنّ كلّ
ما في القرآن الكريم إنما هو جار على طرائق العرب في الكلام، وسننها
في القول، كما قال ابن قتيبة في هذا السياق: "ولست تخلو هذه الحروف
من أن تكون على مذهب من مذاهب أهل الإعراب..." (ابن قتيبة،
تأويل مشكل القرآن، 1973: 57)

وقال أيضا في تأكيد هذا المعنى: "إنّ القرآن نزل بالفاظ العرب
ومعانيها، ومذاهبها في الإيجاز والاختصار، والإطالة والتوكيد، والإشارة
إلى الشيء، وإغماض بعض المعاني، حتى لا يظهر عليه إلّا اللّقى،
وإظهار بعضها، وضرب الأمثال لما خفي، ولو كان القرآن ظاهرا
مكشوفاً، حتى ليستوي في معرفته العالم والجاهل، لبطل التفاضل بين
النّاس، وسقطت المحنة، وماتت الخواطر". (ابن قتيبة، تأويل مشكل
القرآن، 1973: 87)

والمقصود معرفة ما لعلم معاني القرآن من أثر في التصنيف اللغوي،
والذي كان الدّافع إليه الدّفاع عن القرآن، وإبطال شبه المشبهين، وبيان
زيغ الزائغين، وتجلية كون سبب تخليطهم هو جهلهم بلغة العرب،
فحفيت عليهم أنماطها، فوقعوا في الشك ومن ثمّ الزيغ، ولا يرفع هذا

وذاك إلا بمعرفة ما للعرب من أساليب وافتنان في الحقيقة والحجاز، وهذا عين ما قام به المؤلفون في المعاني، كما تجلّى هذا بوضوح في كتاب (تأويل مشكل القرآن) لابن قتيبة، في هذا العمل مئة عظمى على العربية وأهلها، وخدمة جليلة للقرآن وبيانه.

وبعد، فقد آن الأوان للتهيؤ للختام، بالتسليم لأنه لا يمكن للمسلمين أن يقيموا دينهم، أو يتفهموا قرآنهم دون استعانة باللغة العربية، وأنه لولا القرآن الكريم لما تقدّمت علوم العربية، وتميّزت عن غيرها من علوم اللغات الأخرى، كما أنّ بعض علوم العربية لولا القرآن الكريم ما كانت ولا وُجدت، وإن هناك فئة تحاول فصل الأمة عن دينها، ومن مظاهر هذه المحاولة: قطع صلة اللغة العربية بالقرآن والدين، وإبعاد علوم العربية عن الصبغة الدينية، مع التظاهر بحبّ اللغة العربية، والحرص على تعليمها، لكن بشرط تجريدها عن علاقتها بالعلوم الشرعية، وأن لا يكون للدين هيمنة عليها، فنشأت جهود لإقامة أقسام تعليمية للعربية على هذه الأسس، تربّي المتعلمين على غير لغة القرآن، وإن كتبت بالحرف العربي، يدرّسون غير لغة القرآن، وإن سمّوها بالعربية، فتجد بعض الكتاب يدّعي أنّ اللغة العربية حُفِظت لا بسبب ارتباطها بالقرآن الكريم، ولكن بسبب انكفائها على نفسها وانغلاق أهلها، كما يزعمونه موجودا في اللغة الصينية مثلاً، والحق أنّ العربية بنيت على أصل سحريّ، يجعل شبابها خالداً، لا تهرم، ولا تموت، لأنها مادة نَيْرِين

عظيمين؛ كتاب الله تعالى، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. انظر:
(الرافعي، تحت راية القرآن، 1983: 31)

فصل القرآن الكريم على العربية يتمثل في بقائها وخلودها، أدرك هذا
أعداؤها، كما أدركه أهلها، وهذا الذي رفعها إلى أن تكون لغة يتسامى
الناس في تحصيلها، إذ صارت لغة دين، ولغة علم، ولغة عليّة القوم،
فاجتهد الناس في إتقانها لهذه الدوافع، حتى امتاز بعض من هم من غير
أهلها، على من هم من أهلها، وهذه الدوافع ترجع كلّها إلى القرآن
الكريم، فالقرآن الكريم هو الدافع الحقيقي الذي جعل من العربية
مقصدا يتبارى الجميع في بلوغه وتحقيقه.

إنّ من مظاهر الصحة أن تُدرّسَ مثل مادّة القراءات القرآنية في قسم
اللغة العربية، من كلية الآداب واللغات، وذلك لشدة اللّحمة، والترابط
بين النوعين؛ علوم القرآن، وعلوم العربيّة، وقد تغلّغت علوم العربيّة في
صلب علوم القرآن، من قراءة وتفسير، حتى إنّهُ ليتعذر على الدّارس
فصل هذه العلوم عن بعض، ومن الواجب أن لا تحلّو أقسام اللغة
العربية من موادّ الدراسات القرآنية، خاصة ما يتلقّى بالتجويد والقراءات،
وإعراب القرآن، وتفسيره، والقرآن أولى بأن يكون مجالا للدروس
التطبيقية في سائر مجالات اللغة العربية.

فعن عمر رضي الله عنه قال: "أيّها النّاس، تمسّكوا بديوان شعركم في
جاهليّتكم، فإنّ فيه تفسير كتابكم". (القاسمي، 1957: 101/1).

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه
أجمعين.

المراجع

- أبو الطيب اللغوي: مراتب النحويين. القاهرة.
- أبو سعيد السيرافي (1985). أخبار النحويين البصريين. ط1. القاهرة: دار
الاعتصام.
- أبو عمرو الداني. (1983). كتاب النقط. ط2. دمشق: دار الفكر.
- أحمد ابن فارس. (1977). الصحاحي. القاهرة: عيسى البابي الحلبي وشركاؤه.
- أحمد حمدان الرازي. (1994). كتاب الزينة في الكلمات الإسلامية العربية. ط1.
اليمن: مركز الدراسات والبحوث اليمني.
- أحمد فارس أبو الحسن. (1977). الصحاحي. القاهرة: عيسى البابي الحلبي وشركاؤه.
- إسحاق إبراهيم الفارابي. (1976). ديوان الأدب. القاهرة.
- الأصفهاني الراغب. (1972). معجم مفردات ألفاظ القرآن. دار الكاتب العربي.
- حسين نصار. (1968). المعجم العربي نشأته وتطوره. ط2. القاهرة: دار مصر
للطباعة.
- عبد الرحمان محمد ابن خلدون. (1996). المقدمة. ط1. بيروت: دار الكتاب العربي.
- عبد الله مسلم ابن قتيبة. (1382). أدب الكاتب. ط4. القاهرة.
- عبد الله مسلم ابن قتيبة. (1973). تأويل مشكل القرآن. ط2. القاهرة: دار التراث.

- محمد أبو بكر الرازي. (1996). تفسير غريب القرآن. ط1.
- محمد أحمد الذهبي. معرفة القراء الكبار. ط1. القاهرة.
- محمد جمال الدين القاسمي. (1957). محاسن التأويل. عيسى الحلبي.
- محمود سبيويه البدوي. (1983). مقالة عن المصحف الكوفي. كلية القرآن والدراسات الإسلامية، الصفحات 328-333.
- مصطفى صادق الرافعي. (1974). تاريخ آداب العرب. ط2. بيروت: دار الكتاب العربي.
- مصطفى صادق الرافعي. (1983). تحت راية القرآن. ط8. بيروت: دار الكتاب العربي.
- ياقوت الحموي. معجم الأدباء. مصر: مكتبة عيسى الحلبي.

الناصرية